

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مُتَدِيمَة

هذا هو الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالعصر الإسلامي ، وقد وزَّعته على كتابين ، جعلتُ أولهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بني أمية ، وكل كتاب ينقسم فصولاً تُبَحِّثُ فيها جوانب الحياة في العصر بحثاً ترتب فيه المقدماتُ والنتائج موصولةً بالنصوص ، كما يُبَحِّثُ فيها الأعلام النابهنون في الشعر والخطابة والكتابة بحثاً تُرسمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أرضيئيل فحيل في أشعار المخضرمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق . فقد آتمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح . وهم في ذلك كله يستلهمون الإسلام ، ويعيشون له ، ويعيشون به ، يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض ، وقد مضوا يتصدرون عنه في أشعارهم صدور الشدَى عن الأزهار الأرجة . وبالمثل صدروا عنه في نثرهم ، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاءً إذ أنشأوا . . على هدى القرآن الكريم - آيات بدیعة من المواعظ الدينية ، كما أنشأوا ضروباً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بني أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياجهم في مشارق الأرض ومغاربها ، مما أذكى في نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يتحمي في

أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضاً خراسان التي أهملها مؤرخو أدبنا، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً. وقد أخذ الشعراء يَخْتَصِمُونَ في كل مكان لمؤثرات مختلفة: بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية. وفي هذه الأثناء كان الموالى يتعربون، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعرّبوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم. وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يَخْتَصِمُونَ مع العرب في العصر الأموي، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة بيرة وتعاون وإخاء.

والكتاب الثاني يَبَسُطُ كل هذه الظروف الجديدة في حياة الأمة العربية لعصر بني أمية وكيف اندفع الشعراء في ظلها ينهضون بالشعر ويتطورون به في فنونه وأغراضه. فقد مضى شعراء المهجاء والفخر في البصرة ينفذون إلى لون جديد هو النقائض التي بثّوا فيها مناظرة عنيفة في المثالب والمفاخر القبلية. كان يجتمع لها معاصروهم في سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتعة. ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسي الذي صور فيه الزبيريون والخورج والشيعة وغيرهم نظرياتهم في الحكم وقيامهم من دونها مدافعين. ولكل فرقة من هذه الفرق في شعرها طابع تميزه، فبينما يميز مثلاً شعر الخوارج بتصوير استبسالهم في الحروب وتهاقهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يميز بكثرة ما ذرّفوا على أممهم المستشهدين من دموع غزار، مطالبين بردّ السلطان إلى أصحابه الشرعيين. وقد اضطرت فنون الشعر اضطراباً لا في المديح والمهجاء والفخر فحسب، بل أيضاً في الغزل، فظهر فيه الغزل العُدري بجانب الغزل الصريح، وزكا شعر الزهد، وتما شعر المجون ووصف الطبيعة، ومدّ الرُجّاز طاقة أراجيزهم، وسلكوا فيها الطّردِيّات، فهي ليست عباسية - كما كان يُظنّ - إنما هي أموية. وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذها وشواردها، حتى غنّدت - في بعض جوانبها - كأنها متون للاستظهار والحفظ. وفي كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء.

ولعل عصرًا عربيًّا لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت في عصر بني أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية، فقد اشتدت الخصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطباؤها يدُودون عن نظرياتهم مؤلِّبين الناس على خصوصهم . ونشطت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتدمت على لسان الوعَّاظ والقُصَّاص احتداماً ، استطاعوا في أثنائه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المبتذلة ويهبطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات في المراكز المتحضرة التي يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات ، مع العناية بدقائق المعاني وفتق الحيل للتعبير عن خفياتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجة ، وبذلك كانوا أول من مهَّد لوضع قواعد البلاغة العربية .

ونما تدوين المعارف في عصر بني أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبوي وخطوب جسام . وقد مضوا يصنِّفون في المغازي والتاريخ وقصص الأنبياء ، وفي المثالب والأمثال والمواعظ ، وفي مسائل العقيدة من قنَدَر وغير قنَدَر ، وفي الأغاني والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل في الطب والنجوم والكيمياء ، وودَّتوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة ، جعلتهم يستعبرون من الوعَّاظ أسلوبهم الذي وصفناه ، وما زالوا يترقون بكتابتهم ، حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهديني سواء السبيل .